

فَصِيلَةُ عَوَارِ الْجُكُمِ

لِلشَّاعِرِ الْأَدِيبِ أَبِي الْفَتْحِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْبُسَيْنِيِّ
وَلَدَ فِي حُدُودِ سَنَةِ ٣٣٠ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٤٠٠ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

ضَبَطَهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا
عَبْدُ الْفَتْحِ أَبُو غَدَةَ
وُلِدَ سَنَةَ ١٣٣٦ وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٤١٧
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

مَكْتَبُ الْمَطْبُوعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

فَصِيلَةُ عَنَوَانَ الْجَمْرِ

لِلشَّاعِرِ الْأَدِيبِ أَبِي الْفَنَاحِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الْبُسَيْنِيِّ

وَلَدِي فِي حُدُودِ سَنَةِ ٣٣٠ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٤٠٠ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

ضَبَطَهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا

عَبْدُ الْفَتْحِ أَبُو غَدَّةٍ

وُلِدَ سَنَةَ ١٣٣٦ وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٤١٧
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

مَكْتَبُ الْمَطْبُوعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة

- الطبعة الأولى بمطابع دار عالم الكتب بيروت ١٤٠٤
- الطبعة الثانية بالمكتبة العلمية بلاهور باكستان ١٤٠٤
- الطبعة الثالثة (المتن فقط) مع رسالة «من أدب الإسلام» بيروت ١٤١٢
- الطبعة الرابعة بيروت ١٤١٢
- الطبعة الخامسة بيروت ١٤٢٧

قامت بطباعته وإخراجه شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ ويُطلب منها

هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٩٦١١٠٠

e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وليّ الحمد والهداية والرشاد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي ، الذي أرسله الله خير قُدوةٍ للعِبَاد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان واسترشاد .

وبعد فهذه قصيدة ناصحة حَكَمِيَّة ، للأديب الأريب الشاعر الناصر اللبيب أبي الفتح علي بن محمد بن الحسين البُستي ، المتوفى سنة ٤٠٠ رحمه الله تعالى ، اعتنيت بإخراجها ونشرها رجاء انتفاع الطلبة والناشئة بها ، فإنها من خير ما يُحفظه الآباء للأبناء والمعلّم للمتعلم ، لوضوح معانيها ، وجزالة ألفاظها ، واستقلال أبياتها ، حتى صار كل بيت منها مثلاً بذاته .

ترجمتُ لمؤلفها ، واكتفيت بضبطها والتعليق عليها - بإيجاز - فيما لمحت فيه الغموض في بعض المواضع منها ، وأرجو من الله تعالى أن ينفع بها كلّ قارئ ومسترشد ، وهو وليّ التوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

ترجمة أبي الفتح البُستي صاحب قصيدة : عنوان الحكم

هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البُستي ، الشاعر النائر ،
والأديب الأريب ، والمحدث الفاضل ، والفقيه الشافعي . وُلِدَ في مدينة
بُست من بلاد أفغانستان الآن في حدود سنة ٣٣٠^(١) .

سمع الحديث الشريف من محدثي بلاده، من أصحاب الحافظ الكبير المعمر
علي بن عبدالعزيز البغوي ثم المكي شيخ الحرم وأقرانه، وأكثر من سماع الحديث
من الإمام الحافظ أبي حاتم بن حبان البُستي، وكان صديقاً لبلديه الإمام المحدث
الفقيه الأديب أبي سليمان الخطابي البُستي، صاحب « معالم السنن » وغيره من
الكتب النفيسة الممتازة.

ورَوَى عنه الحديث الإمام الحاكم أبو عبد الله النيسابوري ،

(١) ولم أقف على تاريخ ولادته في مصدر من المصادر التي رجعتُ إليها ، وذكر صاحبُ
« معجم المؤلفين » فيه ٧ : ١٨٦ تاريخ ولادته سنة ٣٦٠ . ولا يصح هذا بحال أبداً ،
فإنَّ أبا الفتح البُستي قد أخذ الحديث عن الإمام الحافظ أبي حاتم بن حبان البُستي
بلديه ، وأبو حاتم هذا توفي سنة ٣٥٤ ، فكيف يأخذ عنه من ولد سنة ٣٦٠ ؟!
وأقدر أن ولادته كانت في حدود سنة ٣٣٠ ، لأنه إذا أكثر من سماع الحديث من شيخه الحافظ ابن حبان
المتوفى سنة ٣٥٤ ، فعلى أقل تقدير ينبغي أن يكون عمره في سنة وفاة شيخه ابن حبان بين ٢٠ و ٢٥ سنة .
والله أعلم .

صاحبُ «المستدرک علی الصحیحین» ، وأبو عثمان الصابونی ،
والحسین بن علی البردعی ، وغیرهم . قال الحاکم : « وَرَدَ نِيسَابُورُ غَيْرَ
مرة ، فأفاد حتى أقرَّ له الجماعةُ بالفضل ، وهو أَوْحَدُ عصره في
بابه » . يعني في الأدب والشعر وحسن البيان والكتابة ، إلى جانب أنه
محدثٌ فقيه . وقال السمعاني في « الأنساب » ٢: ٢٢٦ « وهو أَوْحَدُ
عصره في الفضل والعلم والشعر والكتابة » .

ولقد كان أبو الفتح رحمه الله تعالى شاعرَ عصره ، وكاتبَ دهره ،
وأديبَ زمانه ، في النظم والنثر كما شهد له بذلك معاصروه ، وله شعر
رائقٌ تكثرُ فيه الحِكمُ والمعاني البديعة ، كما تشيع فيه الصَّنعةُ البلاغيةُ
العذبة ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله مدائح كثيرة في الإمام الشافعي
رضي الله عنه ، وله « شرح مختصر الجويني » في فقه السادة الشافعية ،
ذكره له صاحبُ « كشف الظنون » فيه ٢: ١٦٢٦ .

وله نثر رائع بديع ، يُكثرُ فيه التجنيسَ والتبديع ، فمن أقواله
الحكيمة التي جَرَتْ مَجْرَى الأمثال : من أصلح فاسده ، أرغم حاسده .
من أطاع غضبه ، أضاع أدبه . عاداتُ السادات ، ساداتُ العادات . من
سعادةٍ جدك ، وقوفك عند حدك . الفهمُ شعاعُ العقل . حدُّ العفاف ،
الرضا بالكفاف . المنيّة ، تضحكُ من الأُمْنِيّة . الدّعة ، رائدُ الضّعة .
من حَسُنَتْ أطرافه ، حَسُنَتْ أوصافه . أحصنُ الجَنّة ، لزومُ السُّنّة .
العقل ، جهبذُ النّقل . الإنصاف ، أحسنُ الأوصاف . إذا بقي ما قاتك ،
فلا تأسَ على ما فاتك .

وقد ترجم له صاحبه الإمامُ الأديب المؤرخ أبو منصور الثعالبي ،
في كتابه « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ٤: ٣٠٢-٣٣٤ ، في اثنتين
وثلاثين صفحة ، فأطنب وأسهب في مدحه والثناء عليه ، وأورد من نثره

العالي وشعره البديع في مختلف الأغراض الشيء الكثير . وله بيتان من أفضل ما قيل في رَسْم خِطَّةِ خدمة الملوك والأمراء والحكام - وقد صاحبهم وعاملهم - وهما قوله رحمه الله تعالى :

إذا خَدَمْتَ الْمُلُوكَ فَالْبَسْ من التوقّي أعزَّ مَلَبَسْ
وأَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ أَعْمَى وأُخْرِجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ

وقد كان هو من كُتَّاب الدولة السَّامانية في خراسان ، وارتفعت مكانته عند الأمير سُبُكْتِكِينَ ، وَخَدَم ابنه يمين الدولة : محمود بن سُبُكْتِكِينَ ، ثم أخرجته هذا إلى ما وراء النهر ، فمات غريباً في بلدة أُوزْجَنْد ببخارى سنة ٤٠٠ هـ أو بعدها بسنة أو سنتين ، رحمه الله تعالى .

وقصيدته هذه تُسَمَّى : (عُنْوَانُ الْحِكْمِ) ، كما ذكره التاج السبكي في ترجمته في « طبقات الشافعية الكبرى » ٥ : ٢٩٤ . وقال العلامة أحمد بن علي المَينِي الدمشقي المتوفى سنة ١١٧٢ ، في كتابه : « الفتح الوَهْبِي على تاريخ أبي نصر العُتْبِي » ١ : ٦٨ ، عند ذكر العُتْبِي لصاحبه أبي الفتح البستي في « تاريخه » :

« وأكثَرُ أشعار أبي الفتح البستي مقطَّعات ، وأبياتها أبياتُ القصائد ، وفرائدُ القلائد ، وأطولُ قصائده وأشهرُها قافيتها النونية في الأمثال ، يَسْتَهيم في حفظها وروايتها أهلُ الأدب ، ويُعْنَى بها الناسُ حتى الصبيانُ في المكتب ، ومطلعها : زيادةُ المرء في دنياه نقصان » . انتهى .

وقد شرحها غيرُ واحد من العلماء ، وممن شرحها ذو النون بن أحمد السُّرْمَارِي البخاري ثم العَيْنَتَاي ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ، وتُرْجِمَتْ

إلى الفارسية ، ذكر ذلك صاحب « كشف الظنون » فيه ٢ : ١٣٣٦

والحق أنها قصيدة تفيضُ بالنصح والهداية والتبصير ، مع العذوبة والفصاحة والجزالة ، وحسن الصنعة البلاغية الرشيقة ، فهي كما قال ناظمها رحمه الله تعالى في أوائلها :

وَأَزْعِ سَمْعَكَ أَمْثَالاً أَفْضَلُهَا كَمَا يُفْضَلُ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ

وهي أنطق دليل على رفعة أدبه ، وبلاغة بيانه ، وكياسة فكره ، وصلاح نفسه ، وقد ضمّنها النصائح الغالية ، والمواعظ البليغة الواعية ، فهي لآلىء مثورة ، وجواهر منظومة ، وكل بيت منها حكمة مستقلة بنفسه ، يُغني عن قراءة رسالة أو كتاب ، فهي من خير الشعر الحكيم وأبلغه .

قال الإمام الأديب أبو بكر الصولي ، في كتابه « المصون » ص ٩ :
« وخير الشعر ما قام بنفسه ، وكَمَل معناه في بيته ، وقامت أجزاء قسمته بأنفسها ، واستغني ببعضها لو سكت عن بعض ، مثل قول النابغة :
فَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْذَبُ ؟

فهذا أجل كلام وأحسنه ، ألا ترى أن قوله : (فلست بمستبق أخاً لا تلمه) ، كلام قائم بنفسه ، فإن زدت فيه : (على شعث) ، كان أيضاً مستغنياً ، ولو قلت : (أي الرجال المهذب ؟) ، وهو آخر البيت ، مُبْتَدِئاً به كمثل أردته ، كنت قد أتيت بأحسن ما قيل فيه . انتهى .

ومن أجل أن هذه القصيدة تضمنت النصائح السامية ، وجاءت

على هذا المنوال ، ألحقها بكتاب « رسالة المسترشدين » للإمام المحاسبي في طبعتها الخامسة ، مع كثرة ما حواه الكتاب من النصائح والمواعظ والإرشاد القويم ، وذلك لأنَّ للشعر تأثيراً على المشاعر لا يُشاركه فيه النثر وإن سَمَا وَجَزُل ، فالشعرُ بجرسه ووزنه وجزالته وبلاغته ، يفعلُ في النفس ما لا يفعله النثر . وكلُّ هذا متحقق في هذه القصيدة : (عنوان الحكَم) ، ولقد صدق أبو الفتح رحمه الله تعالى ، إذ سمّاها أمثالاً ، فقال في آخرها :

خُذْهَا سَوَائِرَ أُمَثَالٍ مُهَذَّبَةٍ فِيهَا لِمَنْ يَتَغَيَّ التَّبَيَّانُ تَبَيَّانُ

* * *

والنَّصُّ المَثْبُتُ فيما يأتي استقيته من « شرح القصيدة النونية » للأستاذ حسين عوني العربكري ، أحد العلماء الأدباء الأتراك ، المدرسين في جامع السلطان بايزيد في إصطنبول رحمه الله تعالى . وقد فرغ من الشرح تأليفاً في أواسط شعبان المعظم من سنة ١٣١١ ، وطُبع في إصطنبول سنة ١٣١٢ ، في ١٢٧ صفحة من الحجم اللطيف .

وجاء في بعض الأبيات رواياتٌ متعددة ، أشار إلى بعضها الشارحُ حيناً ، ووقفتُ عليها حيناً آخر في مصادر ترجمة أبي الفتح البُستي أو مصادر قصيدته ، فانتخبتُ من تلك الروايات أفضلها بحسب نظري الضعيف وأثبتته ، دون الإشارة إلى الروايات الأخرى ، أو إلى المصادر المستفاد منها ، خشية الإثقال بكثرة التعليقات ، والانتقال بالقصيدة من حال الاتعاض بها والاسترشاد ، إلى حال التحقيق العلمي للنصوص والتمحيص فيها والموازنة بينها .

وعلَّقتُ على بعض الأبيات منها كلماتٍ يسيرة ، لإيضاح معناها ،

وبيان مغزاها ، وتركتُ ما كان من أبياتها واضحَ المعنى والمبنى دون تعليق .

تنبيه على الخطأ في نسبة القصيدة إلى غير ناظمها

نسب هذه القصيدة إلى ناظمها أبي الفتح البُستي غيرُ واحد من العلماء الذين ترجموا له ، أو أوردوا هذه القصيدة أو بعضَها في كتبهم ، فهي في « ديوانه » المطبوع موزعة في ص ٧٣-٧٤ وص ٧٧ وص ٧٩-٨٠ ، ومجموعها فيه ٦١ بيتاً ، وأورد بيتين منها ابنُ الجوزي في « المنتظم » ٧: ٧٣ ، وأورد أبياتاً كثيرة منها التاج السبكي ، في « طبقات الشافعية الكبرى » ٥: ٢٩٤ ، وساق السند المتصل به إلى ناظمها البُستي . وكذلك نسب جملة أبيات منها الجمالُ الأسنوي ، في « طبقات الشافعية » ١: ٢٢٢ ، وأورد القصيدة بتمامها الشيخُ أحمد الهاشمي في « جواهر الأدب » ٢: ٤٣٠ ، ونسبها إلى البستي ، وكذلك نسبها إليه الأستاذُ خير الدين الزركلي في « الأعلام » ٥: ١٤٤ ، واكتفى بذكر مَطلعِها : « زيادةُ المرء في دُنياه نُقصانٌ » .

ولكنه بعد أن جَزَم بنسبتها إلى أبي الفتح البستي ، قال في حاشية ترجمته وهو يعدُّ مصادرها ما يلي : « والعُتي ١: ٦٧-٧٢ ، وفيه : « أطولُ قصائده وأشهرُها التي مطلعها : زيادةُ المرء . قلتُ : وفي الحُلل السُّنْدُسيَّة للأمير شبيب أرسلان ٣: ٥٤٦ ، أن « زيادةُ المرء » من نظم أبي البقاء صالح بن شريف الرُّندي ؟ » . انتهى كلام الزركلي ، وقد أشار في آخره إلى استغراب نسبتها إلى الرُّندي ، بوضع علامة التعجب في آخر كلامه .

وقد وقع في كلام الزركلي هذا أغلاط ! أولاً في قوله : « والعُتي

١: ٦٧-٧٢. وهذا الموضع المشار إليه ليس للعتبي ، وإنما هو للمَينِي . ثانياً في نقله عن العتبي أنه قال : « أطول قصائده وأشهرها التي مطلعها : زيادةُ المرء » . وهذا الكلام لا صلةً للعتبي به ، وإنما هو للمَينِي أيضاً ، كما سبق مني نقلُه عنه من كتابه « فتح الوَهبي على تاريخ العُتبي » ١: ٦٨ . ثالثاً في قوله : « وفي الحلل السندسية ٣: ٥٤٦ أن « زيادة المرء » من نظم أبي البقاء صالح بن شريف الرُندي » .

ولدى رجوعي إلى كتاب « الحلل السندسية » المذكور ، تبين أن الأستاذ الزركلي رحمه الله تعالى قد وَهَمَ كُلَّ الوَهَم فيما نسبته إليها ، فقد جاء في أواخر « الحلل السندسية » ٣: ٥٣٣ ما يلي :

« والآن نختم هذا الفصل الذي هو خاتمة الجزء ، بذكر مراثي الأندلس ، بادئين بمراثي بَلَنْسِيَّة . . . » . ثم جاء في ٣: ٥٤٦ « وهذه النونية التي فاقت في الشهرة (قِفَا نَبْكَ) ، ولم يَعهد الناس مَرثِيَّةً بلغت ما بلغته من إثارة الحفايظ ، وإرهافِ العواطف ، فضلاً عن إبداع النظم وإحسان السُّبْكَ ، للعلامة خاتمة أدباء الأندلس صالح بن شريف الرُندي ، المعروف بأبي البقاء الرُندي :

لكل شيء إذا ما تَمَّ نُقصانُ فلا يُغَرِّ بِطِيبِ العيشِ إنسانُ .
ثم ساق القصيدة إلى آخرها في ٤٢ بيتاً .

فلم يكن في « الحلل السندسية » تعرُّضٌ مَّا لقصيدة أبي الفتح البستي : « زيادة المرء . . . » ، لا من قريب ولا من بعيد ، والموضع المشار إليه في كتاب « الحلل السندسية » هو موضعٌ لذكر (مراثي الأندلس) كما سبق نقلُ عبارته ، فلا صلة لقصيدة « زيادة المرء » به ،

ولا صلة لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي بهذه القصيدة ، وإنما سَبَقَ
ذهنُ الأستاذ الزركلي وقلمُه ، وسَهَا عند كتابة هذه العبارة فَوهِمَ بها ! ثم
تابعه متابعون !

ومن العجب العجيب أن الأستاذين الفاضلين محققَي « طبقات
الشافعية الكبرى » للسبكي ، جَعَلَا ما ذكره الزركلي على سبيل
الاستغرابِ وَوهِمَ فيه في نسبة القصيدة : قولاً وارداً في نسبتها ، ثم
استدركا عليه ، فقالا تعليقاً على عَزْوِ التاج السبكي لها إلى البستي ما
يلي :

« وقد ذكر الأستاذ الزركلي في الأعلام ٥ : ١٤٤ ، قال : « وفي
الحل السندسية ٣ : ٥٤٦ أن زيادة المرء من نظم أبي البقاء صالح بن
شريف الرندي » . والقصيدةُ في « ديوان البستي » ص ٧٣ . انتهى
كلامهما . وقد قلّدا فيه السَّاهِي ! واستدركا عليه ! وطَوَّيَا مِنْ كلامه
إشارة التعجب !

وأعجبُ من صنيعهما صنيعُ الأستاذ الفاضل محقق « طبقات
الشافعية » للأسنوي ، فقد تابَعهما في تعليقه على ترجمة البستي فيها
١ : ٢٢٢ ، مستدركاً على الأسنوي إذ عزا القصيدة للبستي في ترجمته ،
فعلّق على ذلك بقوله :

« وفي كتاب الحل السندسية ٣ : ٥٤٦ » أن هذه القصيدة لأبي
البقاء صالح بن شريف الرندي . وقد تداولتها بعضُ الكتب منسوبةً
إليه . انتهى كلام محقق « طبقات الأسنوي » . فزاد عليهما بُعداً من
الصواب ، إذ جَعَلَ ما وَهِمَ فيه الزركلي كلاماً له وتحقيقاً من عنده ! وطَوَّى
ذكر الزركلي الذي هو صاحب هذا القول الموهوم !

وسبب الوقوع في هذا الغلط من أولئك الأفاضل : متابعتهم لكلام
الزركلي الذي وَهَمَ فيه ، فقد اعتمدوه دون مراجعة الكتاب الذي عزا
إليه ما ليس فيه ! وكم يقع للمرء من الأوهام إذا سلك هذه الطريقة ،
فاقتضى المقام بيان ذلك ، والله ولي التوفيق ، والحمد لله رب
العالمين .

وكتبه
في الرياض ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢ عبد الفتاح أبو غدة

استدراك وتمة

بعد مدةٍ بعيدةٍ من كتابتي ما تقدم ، وإرساله إلى المطبعة في بيروت ، وقفتُ على كتاب : « أبو الفتح البُستي حياته وشعره » للدكتور محمد مُرسي الخولي رحمه الله تعالى ، مطبوعاً في بيروت سنة ١٩٨٠ ميلادية ، طبعته دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، في ٣٧٧ صفحة . وقد كنت رأيت في تعليق الفاضلين محققي « طبقات الشافعية الكبرى » عليها في الجزء ١٠ : ٣٠ و ٦٢٧ أن ديوان البستي من هذه النسخة المحققة للخولي غير مطبوع .

فلما وقفتُ عليه مطبوعاً ، ومعه الدراسة الوافية لجوانب حياة الشاعر أبي الفتح البُستي ، فرحتُ بذلك جداً ، واستفدتُ من الدراسة الأدبية التي كتبها الدكتور الخولي استفادةً غالية ، وقد خَصَّ فيها هذه القصيدة بصفحاتٍ طويلة ، فأنا أنقلُ هنا من كتابه المذكور ، ما يتصل بالقصيدة في أغراضها ومقاصدها ودراستها ، باختصارٍ وتعديلٍ يسير ، وألحقه بما قدَّمته لتمام الفائدة لقارئ هذه القصيدة .

قال الدكتور الخولي في كتابه المذكور ص ١٠٣ و ١٠٨ ، في (الفصل الرابع) عن (أبي الفتح الشاعر) : « نَظَم أبو الفتح في كثير من الأغراض التي طَرَقها الشعراء قبله على مرِّ العصور ، وتناول هذه

الأغراض بما يُلائم نفسه وبِئته وشخصيته ، فمدَح وهَجَا ، وقال في الفخر والتغزل والإخوانيات والشكوى والحكمة والمواعظ والأمثال وغيرها . . .

أما شعره فهو شعرٌ سَيَّار ، بما حَفَلَ به من ألوانِ الصنعة البديعة ، من جناس وطباقٍ وغير ذلك ، ويذكرُ براون : أنَّ الناس في مقاهي القاهرة كانوا يُردِّدون شعره ، كما أنَّ نونيته الشهيرة ، كانت تُحفظُ للتلاميذ في كل العالم الإسلامي ، لكثرة فوائدها وعظيم عوائدها ، ويفخرُ أبو الفتح بسَيَرورة شعره فيقول لمدوحه :

رُبَّ شِعْرِ لَمَّا مَدَحْتُكَ فِيهِ سَارَ فِي الْعَالَمِينَ بُعْدًا وَقُرْبًا
فَكَأَنِّي أَوْدَعْتُهُ فَلَكَ الشُّمْسُ سِرَ فَعَمَّ الْبِلَادَ شَرْقًا وَغَرْبًا .

ثم شرح الدكتور هذه الأغراض بإيجاز، إلى أن انتهى إلى غرضِ :
الحكمة والمواعظ والأمثال، فقال في ص ٣٥ - ١٥٠ و ٢١٤ :

« كان أبو الفتح يستعمل كثيراً من معلوماته ، في الطُّبِّ والتنجيم والفقه وغير ذلك في شعره ، وَيَشْغُلُ هذا الغرض - الحكمة والمواعظ والأمثال - حيزاً كبيراً من شعر أبي الفتح . ونظرة عاجلة في ديوانه ، تُرينا إلى أيِّ حَدٍّ كان مُغرمًا بهذا اللون ميلاً إليه ، وهو يَعْرِفُ هذه الحقيقة وَيَصِفُ نفسه بالحكمة في قوله :

صَادِقُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ جَمِيعاً وَلِسَانُ الْحَكِيمِ غَيْرُ كَذُوبٍ

وقد يكون لاشتغال أبي الفتح بالتعليم في أوَّلِ أمره دَخَلَ في مِيلِهِ إلى إسداء النصيح وتوجيه الموعظة ، وإن كنا لا نشك في أنَّ لِمَا كان يمتاز به أبو الفتح من نفس خيرة تُحِبُّ النَّاسَ جَمِيعاً ، وترجو لهم الهداية والسداد أكبر الأثر في ذلك .

ولقد استمدَّ أبو الفتح حكمتَه وشعرَه التعليمي ، الذي شَمِلَ معظمَ نواحي الحياة والمجتمع والكون من مصادرٍ عديدة ، أهمُّها :

١ - تجاربه وآراؤه الخاصة في الحياة ، ولقد كانت نفسه غنيةً بذلك لأنه تقلَّبَ بين سَرَّاءِ العيش وضَرَّائِهِ ، وذاق شُهْدَهُ وصَابَهُ ، واتصل بالناس اتصالاً وثيقاً عميقاً ، على اختلاف طبقاتهم وتنوع مذاهبهم ومشاربهم .

٢ - ثقافته الواسعة التي كانت تشمل الثقافة العربية الإسلامية ، ثم الثقافة الفارسية بحكم بيئته وموطنه ، ثم الثقافة اليونانية التي تعلَّمها المسلمون في وقتٍ مبكرٍ وبرَّعوا فيها ، وأخيراً الثقافة الهندية التي عَرَفها المسلمون عن كَثَبٍ وكان الفضل في ذلك يرجع إلى أمير غَزَنَةِ ناصر الدين سُبُكْتِكِين ، ثم إلى ابنه السلطان محمود من بعده وغزواتهما الموفقة فيها .

هذان المصدران اللذان أمداً أبا الفتح بحكمته ، لم يكونا بالطبع منفصلين في شعره ، بل كان كلُّ منهما يُمَدُّ الآخر ويُقَوِّيه ، بحيث تلازما ولم يَطُغْ أحدهما على الآخر ، فثقافته كانت تُقرِّرُ تجاربه وتؤكدُها ، كما أنَّ تجاربه كانت تُبرِّزُ هذه الثقافة وتجعلُها نابضةً بالحياة .

ويمكننا أن نُورِدَ هنا بعضَ الأمثلة على حكمة أبي الفتح ونظراته في مختلفِ مَنَاحي الحياة ، وما استَخدمَه لتوضيحها وتقريرها من ألوانِ ثقافته المختلفة ، فمن ذلك قوله :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا أَمَرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ
وَلِنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِيْنِ

فالبیت الأول مقتبس من قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٨﴾ ، والثاني من قوله جل شأنه : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ مَا يَخْلُقُ مَا يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ .

وقوله :

لَا تَيَأْسَنْ لِعُسْرَةِ فُرُجٍهَا يُسْرَانِ وَعَدَاً لَيْسَ فِيهِ خِلَافٌ
كَمْ عُسْرَةٍ قَلِقَ الْفَتَى لِنُزُولِهَا اللَّهُ فِي إِعْسَارِهَا أَلْطَافُ
الْبَيْتِ الْأَوَّلِ مَقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ .

وَمِنْ اقْتِبَاسَاتِهِ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ :
بَيْنَ مَنْ يُعْطَى وَمَنْ يَأْخُذُ فِي التَّقْدِيرِ : عَرَضُ
فَيْدِ الْمَعْطَى : سَمَاءٌ وَيَدُ الْآخِذِ : أَرْضُ
وَعَلَى الْآخِذِ أَنْ يَشْكُرَ إِنَّ الشُّكْرَ فَرَضُ
فَهُوَ تَصْوِيرٌ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ
السُّفْلَى » .

وقوله ، وهو مأخوذ من الْحِكْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ :
نَصِييْكَ مِنْ سَفِيهِ أَوْ فَقِيهِ فِي هَذَا وَذَا حِصْنٌ وَحُسْنٌ
فَإِنْ سَأَلْتِ فَالْفَقْهَاءُ حُسْنٌ وَإِنْ حَارَبْتَ فَالسَّفَهَاءُ حِصْنٌ

مَأْخُوذٌ مِمَّا يُرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، مِنْ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَافَرَ سَافَرَ
مَعَهُ بِسَفِيهِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِذَا قَابَلْنَا سَفِيَهُ قَوْمٍ رَدَّ عَنَّا
سَفَاهَتَهُ ، فَإِنَّا لَا نَدْرِي بِمَنْ نُقَابِلُ بِهِ السَّفَهَاءَ (١) .

(١) مِنْ « بَهْجَةِ الْمَجَالِسِ » لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ الْقُرْطُبِيِّ ١ : ٦١٩ .

ومن اقتباساته من الحكمة الفارسية قوله :

إِذَا وُلِّيتَ فَاعْمُرْ مَا تَلِيهِ بِعَدْلِكَ فَإِمَارَةٌ بِالْعِمَارَةِ
وَأَفْضَلُ مُسْتَشَارٍ كُلِّ وَقْتٍ زَمَانُكَ فَاقْتَسِ مِنْهُ الْإِشَارَةَ
مَأْخُودٌ مِنْ وَصِيَّةِ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابَكٍ إِلَى الْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهِ :

« لَا مُلْكَ إِلَّا بِالرِّجَالِ ، وَلَا رِجَالَ إِلَّا بِالْمَالِ ، وَلَا مَالَ إِلَّا
بِالْعِمَارَةِ ، وَلَا عِمَارَةَ إِلَّا بِالْعَدْلِ » (١) .

ومن أخذه من الفلسفة اليونانية ، التي تعتبر العقل هو المقياس
الصحيح للعلم قوله :

إِذَا نَقَلَ الرَّاوُونَ قَوْلًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ ذَوِي الْإِتْقَانِ وَالذَّهْنِ مَأْخُذٌ
فَأُولَى بِذِي التَّمْيِيزِ وَالْحَزْمِ عَرَضُهُ عَلَى الْعَقْلِ إِنَّ الْعَقْلَ لِلذَّهْنِ جِهْبُذٌ (٢)

ومن استعماله لبعض الحكم الهندية قوله :
إِذَا خَدَمْتَ الْمُلُوكَ فَالْبَسْ مِنْ التَّوْقِيِ أَعَزَّ مَلْبَسٌ
وَادْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ

فهو مأخوذ من الحكمة الهندية التي تقول : لَا أَرَى ، لَا أَسْمَعُ ،
لَا أَتَكَلَّمُ . وقوله :

قِيلَ لِلْكُرْكِيِّ إِذْ قَامَ عَلَى الرَّجْلِ الْوَحِيدَةِ
لِمَ لَا تَعْتَمِدُ الرَّجْلَ فِي الْأَرْضِ الْوُطَيْدَةِ
قَالَ : إِشْفَاقًا عَلَى النَّاسِ بِتِ فِيهَا أَنْ أُبِيدَ

(١) من « بهجة المجالس » لابن عبد البر القرطبي ١ : ٣٣٤ .

(٢) الجِهْبُذُ : النَّقَادُ الْبَصِيرُ الْخَبِيرُ .

ونحن نُحسُّ في هذه الأبيات بِنَفْسِ الرُّوحِ التي تَسْرِي في قِصَصِ « كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ » وحكايتها على ألسنة الطيور والحيوانات .

لقد اقتصرنا على ذكر بعض الأمثلة لاستمداد أبي الفتح من الثقافات المختلفة في شعره ، لأن الأمر يطول بنا لو حصرنا كل ما ورد في شعره ، واستقصينا الأساس الذي أخذ منه ، لكن بصفة عامة يمكننا أن نقول : إنَّ أبا الفتح فضلاً عما استخدمه من ألوان ثقافته الإسلامية الواسعة : فقد استمدَّ من معارف الهند في النجوم والأخلاق ، وما عَرَفَ من الفُرس من كتب الأخلاق والسياسة والنجوم .

وظلَّ أبو الفتح قريباً من سَطْحِ هذه الثقافات ، يأخذُ منها ما كان متفقاً مع العقل والتجارب الإنسانية الصحيحة ، التي كَسَبَهَا الإنسان في مسيرته الطويلة نحو التقدم ، فيودعها شعره ، رغبةً في تثقيف عقول الناشئة ، واستفادتهم من هذه التجارب الغالية في حياتهم .

وتحقيقاً لهذه الغاية لم يكتف أبو الفتح بما نَظَّمه من مقطعاته في الحكمة ، بل آثَرَ آخِرَ الأمر أن يَنْظِمَ جُلَّ ما قاله في هذا الغرض ، في قصيدة طويلة تُعَدُّ أطول ما نَظَّم أبو الفتح من شعر ، فهي في ستين بيتاً ، ضَمَّ فيها كلَّ ما فرَّقه في « ديوانه » من حِكْمَةٍ ، مُبَسِّطاً لها ملخصاً إياها . كي يسهل حفظها وفهم ما فيها من معاني الحكمة والفضيلة .

وقد أراد الله لهذه القصيدة أن تَدِيعَ وتَنَشِّرَ ، وأن يَخْتَارَهَا المَعْلَمُونَ في مختلف بقاع العالم الإسلامي ، ليَحْفَظَهَا الطَلَبَةُ ، لِمَا لَمَسُوا فيها من قُرْبِ الفكرة وحسن التوجيه . وكان أن طار معها ذِكْرُ أبي الفتح ، فلا يكاد يُذَكَّرُ حتى تُذَكَّرَ قصيدته النونية ، التي يَحْسُنُ أن نتحدث عنها بشيء من التفصيل فيما يلي :

القصيدة النونية :

نَظَمَ أَبُو الْفَتْحِ تِلْكَ الْقَصِيدَةَ مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ الْكَامِلِ فِي تَفَاعِيلِهِ ،
وَأَوْدَعَ فِيهَا كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْحِكْمَةِ فِي دِيْوَانِهِ ، مَبْسُطًا لَهَا
مُلَخَّصًا إِيَّاهَا ، كَيْ يَسْهُلَ حِفْظُهَا وَفَهْمُ مَا فِيهَا مِنْ مَبَادِيءِ الْأَخْلَاقِ
وَالْفَضِيلَةِ .

وَلَقَدْ قَدَّمَ لِقَصِيدَتِهِ بِمَقْدَمَةٍ عَامَّةٍ فِي أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ ، ذَكَرَ فِيهَا بَعْضَ
الْحَقَائِقِ الْهَامَةِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ ، وَالتِّي تَظْهَرُ لَهُ بِالتَّأَمُّلِ وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ
فِيهَا ، وَلَيْسَ بِالنَّظَرِ الْعَابِرَةِ الَّتِي تَغْتَرُّ بِالظُّوَاهِرِ ، فَيَقُولُ :
زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَكُسْبُهُ غَيْرَ مَحْضِ الْخَيْرِ خُسْرَانُ
وَكُلُّ وَجْدَانٍ حَظٌّ لَا ثَبَاتَ لَهُ فَإِنَّ مَعْنَاهُ فِي التَّحْقِيقِ فَقْدَانُ
ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى تَأْكِيدِ هَذَا الْمَعْنَى بِأَمْثَلِ حَسِيَّةٍ ، مُسْتَعْمِلًا الْاسْتِفْهَامَ
الْإِنْكَارِيَّ لِلتَّسْلِيمِ بِصَحَّتِهَا ، فَيَقُولُ :

يَا عَامِرًا لَخْرَابِ الدَّارِ مَجْتَهِدًا ، بِاللَّهِ هَلْ لَخْرَابِ الْعُمَرِ عُمْرَانُ ؟
وَيَا حَرِيصًا عَلَى الْأَمْوَالِ يَجْمَعُهَا أَنْسَيْتَ أَنَّ سُرُورَ الْمَالِ أَحْزَانُ ؟

أَيُّ إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ تَعْمِيرَ مَا خَرِبَ مِنْ دَارِكَ بِمَقْدَرَتِكَ ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ
مِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا خَرِبَ مِنَ الْعُمُرِ ؟ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْحَرِيصُ عَلَى الْمَالِ
تَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، هَلْ نَسِيتَ أَنَّ السُّرُورَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ،
هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ حُزْنٌ ، لَمَّا يَنْتَابُ صَاحِبَهُ مِنْ هَمٍّ بِالمَحَافِظَةِ عَلَيْهِ ،
وِخْشِيَّتِهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهِ مِنَ الضِّيَاعِ ، ثُمَّ مِنْ مَحَاسِبِهِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
إِنْفَاقِهِ فِي وَجْهِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

كُلُّ هَذَا صَحِيحٌ لَا جَدَالَ فِيهِ ، وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، فَاسْمَعْ مِنِّي
هَذِهِ النَّصَائِحَ الْخَالِصَةَ :

زَعِ الْفَوَادَ عَنِ الدُّنْيَا وَزُخْرِفِهَا فَصَفِّوْهَا كَدَّرَ وَالْوَصْلُ هِجْرَانُ

وَأَرَعَ سَمْعَكَ أَمْثَالاً أَفْضَلَهَا كَمَا يُفْضَلُ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانٌ

ثم يبدأ أبو الفتح بعد ذلك بإيراد هذه الأمثال أو الفضائل النفسانية ، التي تُسبَّبُ السعادة الحقيقية لا الظاهرية للإنسان ، وبدأ بالإحسان ، فيذكر أن فيه العزَّ كلَّ العز لفاعله ، لأنه يتمكن به من استعباد القلوب وامتلاكها ، وهو الوسيلة المؤكدة للوصول إلى ذلك ، ثم يذكر بعد ذلك العفو عن المسيء ، وهو أيضاً نوع من الإحسان والتفضل ، ثم مدَّ يدَ المعونة لكل من يضع ثقته في شخصك ، فهي شِيمَةُ الحرِّ من الرجال :

أَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي عُرُوضِ زَلَّتْهُ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَاناً لَّذِي أَمَلَ يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانُ

ثم ينتقل أبو الفتح بعد ذلك إلى تقوى الله والاستمسك بحبله المتين ، وتوجيه الطلب إليه وحده ، فهو القادر على إجابة الطلب والنصرة ، وكلُّ من عداه في عجزٍ وخِذلانٍ ، ويُعالجُ هذا في ثلاثة أبيات .

ويعود أبو الفتح مرةً ثانية إلى الإحسان ، ويبدو أن هذه القضية كانت تشغله لما يراه من كثرة المحتاجين إليه ، وقصور القادرين عن عمِّله في عصره ، لهذا نراه يُحَضُّ على ذلك مبيناً شتى جوانب الخير والفائدة فيه :

مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَاعاً فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِخْوَانٌ وَأَخْدَانُ
مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَّانُ

ثم يوالي أبو الفتح سرِّدَ حِكْمِهِ ومواعظه ، ذاكراً الحكمة وما

يستفيده المرء لو عمل بها ، فيتحدث عن مُسالمة الناس وجَدَواها لسلامة الإنسان :

من سالم الناس يَسْلَم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جَذْلَانُ
وذاكراً العقل وما في مصاحبتِهِ من هزيمةٍ للحرص :

من كان للعقل سلطانٌ عليه غَدَا وما على نفسه للحرصِ سلطانُ

ثم ذاكراً ما في طبيعة الناسِ عموماً والإخوانِ خصوصاً ، من بَغْيٍ
وعُدوانٍ وخيانة ، ثم يُحذّر من فعل الشر وعاقبتِهِ الوخيمة ، ومُصاحبةِ
الأشرار ، وما في ذلك من خطورة تُعادلُ الخطورة التي يتعرّض لها مَنْ
يَضَعُ صِلًا لا شِفَاءَ من سُمِّهِ بين ملابسه ، ويُعالجُ ذلك في خمسةِ أبيات .

وبعدَ هذا التحذير يعود أبو الفتح إلى عَدَدٍ آخرَ من الفضائل ، آمراً
بها حاثاً عليها ، ويكونُ الرِّفقُ من أهم هذه الفضائل ، فهو يأمرُ به ويُحذّرُ
من نقيضه :

ورافِقِ الرِّفقَ في كُلِّ الأمور فلم يَنْدَمْ رَفِيقٌ ولم يَذُمَّهُ إنسانُ
ولا يَغُرَّنكَ حَظُّ جَرِّهِ خَرَقَ فالخُرْقُ هَذَمٌ ورِفْقُ المرءِ بُنيانُ

ثم يعودُ مرةً أخرى إلى الإحسان بعدَ أن تحدثَ عنه مرتين من
قبل ، لكنه في هذه المرة لا يأمرُ به فحسب ، بل يأمرُ بتعجيله قبلَ فواتِ
القدرةِ عليه :

أحسنْ إذا كان إمكانٌ ومقدرةٌ فلن يدومَ على الإحسانِ إمكانُ

ثم يُواصل الحديثَ بعدَ هذه النصائح التي تتعلق بالروابط بين
الإنسان ومجتمعه ، فيذكرُ بعضَ النصائحِ الخاصّةِ بالإنسان في ذاتِ
نفسه . فيتكلّمُ عن صيانةِ الوجه عن التبدّل ، فالأحرارُ لا يتبدّلون ، وعن
عدم التكاسُل في الخير ، وعن التحلي بالتقَى والعلم ، فبدونهما لا
تكونُ للإنسان فائدةٌ على الحقيقة :

صُنْ حُرَّ وَجْهَكَ لَا تَهْتِكْ غِلَاثِلَهُ فُكُلْ حُرَّ لِحُرِّ الْوَجْهِ صَوَانُ
دَعِ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا فَلَيْسَ يَسْعُدُ بِالْخَيْرَاتِ كَسْلَانُ
لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَغْرَى مِنْ تُقَى وَنُهَى وَإِنْ أَظْلَمَتْهُ أَوْرَاقُ وَأَغْصَانُ

ثم ينتقل أبو الفتح إلى ذكر بعض الحقائق المؤسفة ، التي تلاحظ في المجتمع ، من أن الناس مع ذي الجاه والسلطان يُعينونه ويُبجلونه ، فإذا انقضى سلطانُهُ انفضوا عنه ونبذوه ، كذلك فإن المال يجعل العبيد عند الناس بليغاً ، وعَدَمُهُ يجعل أفصح الفصحاء عيباً لا يُبين :
والناسُ أعوانُ من والتهُ دولتهُ وهُم عليه إذا عادتهُ أعوانُ
سَحْبَانُ من غيرِ مالٍ باقِلُ حَصِرُ وباقِلُ في ثراءِ المالِ سَحْبَانُ
وهي لا شك مقاييسُ خاطئة ، تدعو إلى العَجَب والغرابة .

ثم ينتقل أبو الفتح إلى التحذير من بعض ما يَعلمه الإنسان ، مما ينطوي على الخطورة في العواقب فيقول :
لَا تُودِعِ السَّرَّ وَشَاءَ بِهِ مَذِلًّا فَمَا رَعَى غَنَمًا فِي الدَّوِّ سِرْحَانُ
لَا تَحْسَبِ النَّاسَ طَبْعًا وَاحِدًا فَلَهُمْ غَرَائِزُ لَسْتَ تُحْصِيهِنَّ أَلْوَانُ
مَا كُلُّ مَاءٍ كَصَدَاءٍ لِوَارِدِهِ نَعَمْ وَلَا كُلُّ نَبْتٍ فَهْوَ سَعْدَانُ
لَا تَخْدِشَنَّ بِمَظَلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ فَالْبِرُّ يَخْدِشُهُ مَظَلٌ وَلَيَّانُ
لَا تَسْتَشِرْ غَيْرَ نَذْبٍ حَازِمٍ يَقْظِ قَدْ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارُ وَإِعْلَانُ
فَلِلتَدَابِيرِ فُرْسَانُ إِذَا رَكَضُوا فِيهَا أَبْرُوا كَمَا لِلْحَرْبِ فُرْسَانُ
فَلَا تَكُنْ عَجَلًا فِي الْأَمْرِ تَطْلُبُهُ فَلَيْسَ يُحْمَدُ قَبْلَ النُّضْجِ بُحْرَانُ

ويتأمل أبو الفتح في ما يَحْتَاجُ إليه الإنسان على الحقيقة في هذه الحياة ، فيقول :

كَفَى مِنَ الْعَيْشِ مَا قَدْ سَدَّ مِنْ عَوَازٍ فِيهِ لِلْحُرِّ قُنْيَانُ وَغُنْيَانُ
حَسْبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خِلَا يُعَاشِرُهُ إِذَا تَحَامَاهُ إِخْوَانُ وَأَخْدَانُ

ثم يوجه تحذيراً شديداً إلى الظالم ، ويُخَوِّفه عاقبة ظلمه ،
فيقول :

يا ظالماً فَرِحاً بِالْعِزِّ سَاعَدَهُ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ فَالذَّهْرِ يَقْظَانُ
ما اسْتَمَرَّ الظُّلْمَ لَوْ أَنْصَفْتَ آكِلُهُ وهل يَلْدُ مَذَاقَ الْمَرْءِ خُطْبَانُ

ثم يَتَحَدَّثُ عن التحلي بالتقوى والعقل ، ثم عن فوائد العلم
ومساوي الجهل . ثم يُزجي النصيحة بعد ذلك إلى الشباب والشيخوخة ،
أما الشباب فنصيحتهم هي ألا ينتشوا بكأس الشباب وما تُتيحُه لهم من
مُتعة ، فالنشوة تَحْجُبُ عنهم إدراك الحقيقة ، وهي أنَّ هذه الفترة لن
تدومَ كما يُخَيِّلُ إليهم ، وأنَّ المنيَّةَ كم اختطفَت من الشباب الأقوياء قبل
الشيخوخة الكبار الضعفاء :

يا رافِلاً في الشباب الرَّحْبِ مُتَشَيِّاً من كَاسِهِ هل أَصَابَ الرُّشْدَ نَشَوَانُ
لا تَغْتَرِرْ بِشَبَابٍ رَائِقٍ نَضِرِ فكم تَقَدَّمَ قَبْلَ الشَّيْبِ شُبَّانُ

أما نصيحتهم إلى الشيخوخة فهي أن يَتَنَبَّهوا ويكونوا نُصَحَاءَ لأنفسهم ،
ولو فَعَلُوا لامتنعوا عن كثير من الوجوه التي لا تَلِيْقُ بأمثالهم ، والتي لو
وَجَدْنَا عُذْراً للشباب في ارتكابها ، لَمَّا وَجَدْنَا للشيخوخة مثله مهما حاولنا :

ويا أَخَا الشَّيْبِ لو ناصحتَ نَفْسَكَ لم يَكُنْ لِمِثْلِكَ في الإسرافِ إِمْعَانُ
هَبِ الشَّيْبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا ما عُذْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ؟!

ويَخْتُمُ أبو الفتح قصيدته بالتحدث عن الله ، وواسع عفوه وكريم
مغفرته لكل الذنوب ، ما دام المرءُ عَامِراً القلب بالإيمان والإخلاص :
كُلُّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا إِنْ شَيَّعَ الْمَرْءَ إِخْلَاصُ وَإِيمَانُ
وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْبِرُهُ وما لكسِرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

ثم يَحُثُّ على حفظ قصيدته والحرص عليها ، فهي أمثالٌ سائرةٌ مهذَّبةٌ بالتجربة ، فيها تبيانٌ لكثير من وجوه الخير في الدين والدنيا ، ولا يضرُّها أنْ لم يَقُلْها شاعرٌ فحلَّ كحسَّان شاعرِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالعبرةُ بالقولِ نفسه وما فيه من حكمةٍ رائقةٍ أو معنى بديع ، ولا عبرةٌ بعد ذلك بقائله :

خُذْهَا سَوَائِرَ أَمْثَالٍ مَهْذَبَةً فِيهَا لِمَنْ يَبْتَغِي التَّبَيَانَ تَبْيَانُ
مَا ضَرَّ حَسَّانَهَا - وَالطَّبْعُ قَائِلُهَا - أَنْ لَمْ يَقُلْهَا قَرِيعُ الشَّعْرِ حَسَّانُ

ومن دراسة هذه القصيدة تبدو للمرء بعض الملاحظات ، أهمُّها :
أنَّ أبا الفتح عاد إلى ارتداء ثوب المُعَلِّم بطريقةٍ قوية ومباشرة ، فقد فرَّغ لهذه القصيدة بكل جهده وبلاغته وأطال فيها ، وكأنه في حلقةٍ دَرَسٍ بين طلبيةٍ يوجههم ويثقفهم ، كما كان يفعلُ في الماضي إذ كان في شبابه معلِّماً .

لكنه في هذه المرة عاد مُعَلِّماً مُحمَّلاً بالكثير من التجارب ، التي اكتسبها من حياته السياسية والاجتماعية ، واحتكاكه بالكثير من النماذج البشرية ، مما أكسبه نظرةً واعيةً وبصراً بمختلف شئون الحياة .

كذلك فلم يكن تلاميذه هذه المرة مجموعةً خاصةً تتلقَّى دَرَساً في فرع خاصٍّ من فروع المعرفة ، بل اتَّسَعَتْ حتى شَمِلَتْ كُلَّ فَرْدٍ من أفراد الإنسانية له عقل ووعي ، يُريدُ بهما معرفة الطريقِ السليمةِ التي تُوصِلُ إلى الخير والسعادة .

ولقد حَشَدَ أبو الفتح لرسم هذه الطريقِ مجموعةً كبيرةً من الفضائل التي يَجِبُ أن يتحلَّى بها الإنسان ، ويتصفُّ بها لبلوغ غايته في السعادة .

فَتَحَدَّثَ عَنِ الصِّفَاتِ الْخُلُقِيَّةِ وَمِنْهَا : الْإِحْسَانُ ، وَتَعْجِيلُهُ ، وَالْعَفْوُ
عَنِ الْمَسِيءِ ، وَالرَّفْقُ فِي كُلِّ أُمُورٍ ، وَبِشَاشَةُ الْوَجْهِ ، وَالتَّوَدُّدُ إِلَى
النَّاسِ ، وَاللُّطْفُ .

وَعَنِ الصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ وَمِنْهَا : اتِّبَاعُ طَرِيقِ اللَّهِ ، وَالِاسْتِمْسَاكُ
بِحَبْلِهِ ، وَالْقَنَاعَةُ ، وَالزُّهْدُ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَالتَّمَسُّكُ بِأَوَامِرِ الدِّينِ ،
وَالِابْتِعَادُ عَنِ الظُّلْمِ .

وَعَنِ الصِّفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَمِنْهَا : التَّمَسُّكُ بِالْعَقْلِ ، وَعَدَمُ اتِّبَاعِ
الْهَوَى ، وَالْحَرَصُ عَلَى التَّعَلُّمِ ، وَفَصَاحَةُ اللِّسَانِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ اسْتَعْمَلَ أَبُو الْفَتْحِ لَصِيَاغَةَ هَذِهِ الْمَعَانِي أَسْلُوبًا سَهْلًا مَبْسُطًا ،
لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ أَوْ الْمَعْقَدَةِ ، وَاخْتَارَ لِقَصِيدَتِهِ بَحْرَ
الْبَسِيطِ ، وَهُوَ بَحْرُ زَاخِرٍ جَيَّاشٌ يَتَّسِعُ لِلْفِكْرَةِ ، وَيَنْهَضُ بِمَا يُحْمَلُهُ الشَّاعِرُ
مِنْ عُنَاوِرِ الْقُوَّةِ وَالتَّأْثِيرِ . كَمَا وَشَّحَ مَعَانِيَهُ بِصُورٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْبَيَانِ
وَالْبَدِيعِ ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَشْبِيهَاتِهِ وَاسْتِعَارَاتِهِ الْمَوْفَّقَةِ قَوْلُهُ :

مَنْ يَزْرَعُ الشَّرَّ يَحْصِدُ فِي عَوَاقِبِهِ نَدَامَةً وَلِحَصْدِ الزَّرْعِ إِبَّانُ
مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صِلٌ وَتُعْبَانُ

وَقَوْلُهُ :

أَحْسِنُ إِذَا كَانَ إِمْكَانُ وَمَقْدَرَةٌ فَلَنْ يَدُومَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِمْكَانُ
وَالرَّوْضُ يَزْدَانُ بِالْأَنْوَارِ فَاغِمَةً وَالْحُرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ يَزْدَانُ

أَمَّا اسْتِعْمَالُهُ لِلْبَدِيعِ فَقَدْ كَثُرَ ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَخْلُو بَيْتٌ مِنْ بَعْضِ
أَنْوَاعِهِ ، وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانُ وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَحْضٍ الْخَيْرِ خُسْرَانُ

فَبَيْنَ زِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ وَرِبْحٍ وَخُسْرَانٍ طِبَاقُ .

وقوله :

يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً ، بالله هل لخراب العمر عمران ؟ !
فيه أيضاً طباق بين العِمارة والخراب ، وفيه تجنيس تام في العمر
والعمران ، وفيه إدراج أيضاً لأنه أدرج الشكاية عن الزمان في أثناء
كلامه ، حيث جعل مرور الدهر مخرباً لما عمّره الناس ، وفيه تجاهل
العارف حيث تجاهل وجود العاير لخراب العمر .

وقوله :

وأزع سمعك أمثالا أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان
فيه مراعاة النظير بين المصراعين .

وقوله :

سحبان من غير مال : باقل حصير وباقل في ثراء المال سحبان
فيه التصدير أو رد الصدر على العجز .

وهكذا إلى آخر هذه الصور البديعية ، التي لا يكاد يخلو منها
بيت . على أن قصيدة أبي الفتح وإن اتسمت بوحدة الموضوع ، إلا أنها
تفتقر إلى التلاحم بين أفكارها ، حيث كان أبو الفتح يُعالج فكرة
كالإحسان مثلاً ، ثم نراه يتركها قبل أن يستكمل القول فيها ، ويتحدث
عن فكرة أخرى كالعفو ، ثم يرجع إلى الإحسان وهكذا ، كما يبدو
للقارئ لأول وهلة .

ولهذا فإنه يمكن القول بأن القصيدة تُشبه أجزاء مرصوة بعضها
بجانب بعض ، بحيث يُمكن التصرف في أبياتها بالتقديم والتأخير ، دون
أن تتأثر المعاني بشيء . وعلى ما يبدو : فلقد كان أبو الفتح يُريد للبيت

أن يكون وَحْدَةً مُسْتَقَلَّةً بِمَعْنَاهَا ، ولهذا كان يَذْكُرُ النصيحةَ وفائدتها في البيتِ نفسه كقوله :

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فطالما اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لَّذِي أَمَلُ يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانُ
وَأَشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ

وقليلاً ما عالج الفكرةَ في بيتين أو ثلاثة ، ولعلَّه كان يقصِدُ أن يكون كلُّ بيتٍ مثلاً سائراً ، يُحَفَظُ بسهولةٍ ويُمَثَّلُ به في مناسبتِهِ .

لقد انتشرت قصيدةُ أبي الفتح وذاعت في مختلفِ أنحاء العالم الإسلامي ، ويرجعُ ذلك في رأينا إلى أن المعلمين والمهتمين بتربية النشء ، وجدوا فيها الدعوةَ إلى الفضائل الحميدة بلا إسرافٍ في الحُجَجِ العقليةِ أو الفلسفية ، ولا تطرُفٍ في الدعوةِ إلى عقيدةٍ مُعَيَّنَةٍ أو مذهبٍ ومَسْلَكٍ خاصٍّ في الحياة ، فهي ليست كَمُزْدَوِجَةِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ في الأمثال ، وهي التي دَعَتْ إلى الزُّهْدِ وَحَثَّتْ عليه ، وهي أيضاً ليست كقصيدةِ صالح بن عبد القدوس في الحكمة ، والتي مَطَّلَعُهَا :
الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمَانُ يُفَرِّقُ وَيَظَلُّ يَرْقَعُ وَالْخُطُوبُ تُمَزِّقُ

والتي امتلأت بالنظراتِ الفلسفية ، والتأملِ العميقِ لمختلفِ نواحي الكونِ والحياة .

وإلى جانب ذلك فقد كان لاحتفالِ صاحبها بها وتأنيقه في نسجها ، وتخيره لألفاظها وأساليبها ، وحرصه على وشيها ، بمختلفِ صُورِ البيانِ والبديع : أَنَّ وَجَدَ المعلمون فيها من هذه الناحية أيضاً ، ما يُمكن أن يُفيدَ تلامذتهم في دراستها .

ولهذا فإننا نرى صُوراً كثيرةً من العناية بها ، فقد شَرَحَهَا عَدَدٌ كبيرٌ

من الشُّراح ، منهم : أبو منصور الثعالبي في كتابه « نثر النظم وحلُّ العقْد » ، وهو شرحٌ مبسّطٌ صغير ، يُعنى بإيراد البيت وذكر معناه في سطرٍ واحد .

وشرحها محمودُ بن عثمان النجّاتي ، المتوفى سنة ٧١٣ هـ ،
وعبدُ الله بن محمد بن أحمد النقره كار ، المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ،
وشرحُه لها شرحٌ واسع ، غنيّ فيه بذكر المعنى ، وإعرابِ الأبيات ،
وإبرازِ بعض النكتِ البلاغية .

وشرحها عبدُ الرحمن العُمري الميلاني ، المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ،
وشرح بعض أبياتها عبدُ القادر بن العيّدروس ، المتوفى سنة ١٠٣٨ هـ .
كما طُبعتْ مع شرح بعض ألفاظها في كثير من الكتب ، فهي تردُّ
في كتاب « حياة الحيوان الكبرى » للذّميري ، و« طبقات الشافعية
الكبرى » لابن السبكي .

كما تردُّ في كثير من مجاميع الأدب والكتب التعليمية ، ككتاب
« التعليقات الشريفة لجملة من القصائد الحكيمية » لمحمود الشريف ،
المطبوع في القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ، وفي « بلوغ الأرب » للسّجاعي ،
المطبوع سنة ١٣٢٤ هـ ، وفي « مجاني الأدب » للويس شيخو
اليسوعي ، الجزء الرابع صفحة ٩٥ ، وفي « تنزيه الألباب في حقائق
الآداب » المطبوع في الموصِل سنة ١٨٦٢ م ، وفي شرح « الهداية
للمستفيدين والدّراية للمستفيذين » ، المطبوع في الإسكندرية . كما
توجدُ نسخٌ مخطوطةٌ لها في معظم مكتبات العالم ^(١) .

ومن الجدير بالذكر أنَّ الأمير شكيب أرسلان في « الحُلل

(١) انظر « تاريخ الأدب العربي » لكارل بروكلمان ٢ : ١١٨ .

السُّنْدُسِيَّةُ»^(١)، يَذْكُرُ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مِنْ نَظْمِ أَبِي الْبَقَاءِ صَالِحِ بْنِ شَرِيفِ الرُّنْدِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَهَذَا خَطَأٌ مِنْهُ أَوْ سَهْوٌ^(٢)، فَالْوَاقِعُ أَنَّهَا قَصِيدَةٌ مَغَايِرَةٌ تَمَاماً لِهَذِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى نَفْسِ الْوَزْنِ وَالرُّوْيِ، فَقَصِيدَةُ أَبِي الْفَتْحِ فِي الْحِكْمَةِ، وَمَطْلَعُهَا كَمَا نَعْرِفُ:

زِيَادَةُ الْمَرْءِ فِي دُنْيَاهُ نُقْصَانٌ وَرِبْحُهُ غَيْرَ مَخْضِرِ الْخَيْرِ خُسْرَانٌ

وقصيدة أبي البقاء الرُّنْدِيِّ فِي رِثَاءِ دَوْلِ الْأَنْدَلُسِ، الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَيْدِي النَّصَارَى، وَمَطْلَعُهَا^(٣):

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانٌ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دَوْلٌ مِنْ سَرِّهِ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانٌ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانٌ
وَوَاضِحٌ أَنَّ هَذِهِ غَيْرُ تِلْكَ، وَإِنْ كَانَ الرُّنْدِيُّ قَدْ تَأَثَّرَ وَلَا شَكَّ
بِقَصِيدَةِ أَبِي الْفَتْحِ وَنَسَجَ عَلَى مِثْلِهَا، فَهُوَ قَدْ اخْتَارَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ
الذَّائِعَةَ فِي مَخْتَلِفِ بَقَاعِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، بِصُورَتِهَا مِنَ الْوَزْنِ وَالْقَافِيَةِ،
وَحَمَلَهَا صَبِيحَاتِهِ إِلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، لَكِي يُذَرِّكُوا إِخْوَانَهُمُ الَّذِينَ يُنْكَلُّ

(١) نقلاً عن صاحب «الأعلام» ٥ : ١٤٤ .

(٢) هكذا وقع من الدكتور الخولي في كتابه المنقول عنه : « أبو الفتح البُستِي حياته وشعره » ص ١٤٨ - ١٥٠ ، وهو خطأ بُنيَ على خطأ ، وذلك أنه بنى كلامه هذا على كلام الزركلي في « الأعلام » ٥ : ١٤٤ .

وقد نبهت في ص ١٠ على وَهْمِ الأستاذ الزركلي رحمه الله تعالى في هذا وعلى وَهْمِ مَنْ تَابَعَهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ الْعَجَبُ الشَّدِيدُ أَنَّ الدكتور الخولي - وهو في صَدَدِ الدِّرَاسَةِ الْمُتَعَمِّقَةِ الْمُتَحَقِّقَةِ - تَابَعَهُ أَيْضاً ! دُونَ أَنْ يُرَاجِعَ « الْحُلُلَ السُّنْدُسِيَّةَ » لِلْأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسَلَانَ ، لِيُنْكَشِفَ لَهُ خَطَأُ الْأَسَاطِذِ الزَّرْكَلِيِّ وَوَهْمُهُ فِيهِمَا قَالَهُ ! وَإِنَّمَا نَقَلْتُ كَلَامَ الدكتور الخولي هُنَا - عَلَى مَا فِيهِ مِنْ وَهْمٍ وَخَطَأٍ قَدْ نُبِّهْتُ عَلَيْهِ فِي ص ١٠ - ، لِأَنَّ الدكتور الخولي تَعَرَّضَ لِاقْتِبَاسِ الشَّاعِرِ أَبِي الْبَقَاءِ الرُّنْدِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ ، مِنَ الشَّاعِرِ أَبِي الْفَتْحِ الْبُستِي الْمَشْرِقِيِّ ، وَهُوَ أَمْرٌ صَحِيحٌ وَحُكْمٌ سَلِيمٌ .

(٣) انظر القصيدة بتمامها في « نفح الطيب » للمَقْرِي ٦ : ٢٣٢ - ٢٣٤ .

بهم النصارى ، ويستبيحون حُرُمَاتِهِمْ كلما سقطت في أيديهم مدينةً من مَدُنِهِمْ .

وتأثيرُ قصيدة أبي الفتح واضحٌ كلُّه الوضوح في تلك القصيدة الأندلسية ، فَمَظَلَعُهَا مأخوذٌ من مَظَلَعِ أبي الفتح ، وفيه بعضُ ألفاظِهِ .
وقولُ أبي البقاء :

هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُولٌ مِنْ سَرِّهِ زَمَنُ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
مَأْخُودٌ بِنَصِّهِ مِنْ بَيْتِ أَبِي الْفَتْحِ :
لَا تَحْسَبَنَّ سُورَرًا دَائِمًا أَبَدًا مِنْ سَرِّهِ زَمَنُ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وقوله :

يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ الْدَّهْرِ يَقْظَانُ
مَأْخُودٌ بِنَصِّهِ مِنْ بَيْتِ أَبِي الْفَتْحِ :
يَا نَائِمًا فَرِحًا بِالْعِزِّ سَاعِدُهُ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ الْدَّهْرِ يَقْظَانُ
وقوله :

يَا رَبِّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حَيْلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحُ وَأَبْدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلِ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ

البيتُ الأخيرُ فيه ألفاظُ أبي الفتح في قوله :
وَأَرْعَ سَمْعَكَ أَمْثَالًا أَفْصَلُهَا كَمَا يُفْصَلُ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ
وهكذا استغلَّ الرُّنْدِيُّ إطارَ هذه القصيدة ، وكثيراً من أبياتها المشهورة ، لكي يصلَ صَوْتُهُ إلى أرجاءِ العالمِ الإسلامي ، من خلال ألفاظٍ رُدِّدَتْ وَحُفِظَتْ في جميعِ بقاعِهِ ومختلفِ مستوياتِهِ . انتهى

قصيدة : عنوان الحكيم للشاعر الأديب أبي الفتح البستي

- ١ زيادة المرء في دنياه نقصان
- ٢ وكل وجدان حظ لا ثبات له
- ٣ يا عامراً لخراب الدار مجتهداً ،
- ٤ ويا حريصاً على الأموال تجمعها
- ٥ زرع الفؤاد عن الدنيا وزينتها
- ٦ وأرع سمعك أمثالا أفصلها

* * *

- ١ - أي ازدياد الإنسان من الدنيا وتوسُّعُه فيها - إن لم يكن في الخير الخالص - يكونُ خسارةً له ونقصاً من حظِّه في آخرته .
- ٢ - أي كلُّ حظٍّ ونصيبٍ يجده المرءُ في دار الدنيا ، ولا يصحُّبه منه الأجرُ والثوابُ إلى دار الآخرة ، فهو على التحقيق فقدان .
- ٣ - أي يا عامراً للدارِ الخراب وهي الدنيا ، باذلاً فيها جهدك وعُمرَكَ ، هل لخرابِ عُمرِكَ العزيزِ وضياعِهِ فيها عُمرانُ ؟
- ٤ - أي أنسيتَ أنَّ سرورَ المالِ هُومٌ وأحزان : في جمعه ، وتصريفه ، وواجباته ، ومسؤولياته ، وفَقْدِهِ . . . ؟
- ٥ - زرعِ الفؤادَ ، بالزاي ، فِعْلٌ أمرٌ من وَزَعَه عن الأمرِ كَفَّه عنه ، أي كَفَّ القلبَ عن حُبِّ الدنيا وزخارفِها ، لأنها غرارةٌ غُدَّارةٌ ، فما تراه من صَفْوِها فهو كَدْرٌ ، وما تراه من قُرْبِها فهو هِجران .
- ٦ - أَرعِ سَمْعَكَ : أَصْغِه إِلَيَّ لتستمعَ مقالتي بانتباهٍ وتدبُّرٍ .

- ٧ أَحْسِنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ
 ٨ يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِهِ
 ٩ أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فُضَائِلَهَا
 ١٠ وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي
 ١١ وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لَذِي أَمَلٍ
 ١٢ وَأَشَدُّ يَدِيكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا
- فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
 أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ ؟
 فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ
 عُرُوضُ زَلَّتْهُ صَفْحٌ وَغُفْرَانُ
 يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانُ
 فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ

* * *

- ١٣ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُحْمَدُ فِي عَوَاقِبِهِ
 ١٤ مَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي طَلَبٍ
 ١٥ مَنْ كَانَ لِلْخَيْرِ مَنَاعًا فَلَيْسَ لَهُ
 ١٦ مَنْ جَادَ بِالْمَالِ مَالَ النَّاسِ قَاطِبَةً
 ١٧ مَنْ سَالَمَ النَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِمْ
- وَيَكْفِيهِ شَرٌّ مِنْ عَزُّوا وَمِنْ هَانُوا
 فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانُ
 عَلَى الْحَقِيقَةِ إِخْوَانُ وَأُخْدَانُ
 إِلَيْهِ وَالْمَالُ لِلْإِنْسَانِ فَتَّانُ
 وَعَاشٍ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ جَذْلَانُ

- ٧ - تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ : تَسْتَمِلُهَا وَتَمْلِكُهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، فَكَثِيرًا مَّا مَلَكَ الْإِحْسَانُ قَلْبَ الْإِنْسَانِ . وَقَدِيمًا قَالُوا : جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا . وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ بِحَدِيثِ نَبِيٍّ .
- ٨ - أَيُّهَا الْمُجْدُّ السَّاعِي فِي خِدْمَةِ جَسَدِهِ وَتَحْصِيلِ مَلَذَّاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، أَنْتَ بِهَذَا عَبْدُ الْجَسَدِ ! إِنَّ مَا تَجْهَدُ فِيهِ هُوَ مِنَ الْخُسَارَةِ وَلَيْسَ مِنَ الرِّبْحِ فِي شَيْءٍ ، فَعَجَبًا لَكَ تَنْشُدُ الرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ !
- ١٠ - عُرُوضُ زَلَّتْهُ . يَعْنِي : زَلَّتْهُ الْعَارِضَةُ .
- ١١ - مِعْوَانًا : كَثِيرَ الْعَوْنِ وَالْمُسَاعَدَةِ . يَرْجُو نَدَاكَ : أَيُّ كَرَمَكَ وَعَطَاءَكَ .
- ١٢ - فَإِنَّهُ الرُّكْنُ ، أَيُّ الْمَلَأُذُ وَالْمَرْجِعُ .
- ١٤ - فَإِنَّ نَاصِرَهُ عَجَزٌ وَخِذْلَانُ ، أَيُّ إِنَّ مَالَهُ إِلَى الْعَجْزِ وَالْخِذْلَانِ .
- ١٥ - أَخْدَانُ : أَصْدِقَاءُ ، جَمْعُ خِذْنٍ وَهُوَ الصَّدِيقُ .
- ١٧ - مِنْ غَوَائِلِهِمْ : شُرُورِهِمْ وَمَسَاءَتِهِمْ . قَرِيرُ الْعَيْنِ : مَسْرُورٌ . جَذْلَانُ : فَرَحَانُ .

١٨ من كان للعقل سلطانٌ عليه غداً وما على نفسه للحرص سلطانٌ

* * *

١٩ من مدَّ طَرْفًا لِفَرْطِ الجَهِلِ نحوَ هَوَى

٢٠ من عاشَرَ الناسَ لاقى منهم نَصَبًا

٢١ ومن يُفَتِّشُ عن الإِخوانِ يَقلِّهِمُ

٢٢ من استشارَ صُرُوفَ الدَّهْرِ قامَ له

٢٣ من يَزْرَعِ الشَّرَّ يَحْصِدُ في عواقِبِهِ

٢٤ من استنَّامَ إلى الأَشْرارِ نامَ وفي

٢٥ كُنْ رَيِّقَ البِشْرِ إِنَّ الحُرَّ هَمَّتُهُ

١٨ - يعني من عَمِلَ بالعقل وفكَّرَ في أمور الدنيا ، غدا زاهداً في حُطَايِمِها ، وليس للحرص والطمع عليه سَيِّطَرَةٌ .

١٩ - الطَّرْفُ هنا : العين . خَزَيَان : ذليل . والمعنى : من أَطْلَقَ بصره نحوَ الهوى والشهواتِ المحرَّمة ، تَثاقَلَ عن نصرِ الحق وبراءِ بالدُّلَّةِ والخِزي .

٢٠ - النَّصَبُ هنا يُرادُ به المتاعِبُ والشُّرُورُ والعداوات . والسُّوسُ : الطبيعة .

٢١ - يَقلِّهِمُ : يُبغِضُهُم ويكرَهُهُم ، من قَلَاهُ يَقلِّيه : أَبغَضَهُ وَكَرِهَهُ وهجره .

٢٢ - استشار : استكشف . صُرُوفُ الدهر : حوادثه ونوائبه وتقلُّباته .

٢٣ - إِبَّانٌ : وقتٌ محدَّد .

٢٤ - استنَّامَ إلى الأَشْرارِ : سَكَنَ إليهم وصاحبهم . الصِّلُ : الحَيَّةُ التي لا تَنفَعُ فيها الرُّقِيَّةُ والعِلاجُ ، لشدةِ سُمِّها القاتل . الثَّعبانُ نوعٌ من الحَيَّاتِ الطُّوالِ القاتلة . أي من صاحبِ الأَشْرارِ لِحَقِّه منهم الأذى والهلاكُ من حيث لا يدري .

٢٥ - رَيِّقُ البِشْرِ : جميلُ البِشْرِ دائِمه . والبِشْرُ طَلاقَةُ الوجه وبشاشته . والصَّحِيفَةُ يعني بها : الوجه . والمعنى : أنَّهُم الحُرُّ أن يكونَ طَلَّقَ الوجهَ باسمِ المُحَيَّا ، لِحُبِّهِ الناسَ ويألفوه ويتنفعوا به ويتنفع بهم .

- ٢٦ ورافقِ الرَّفْقَ في كُلِّ الْأُمُورِ فلم
 ٢٧ وَلَا يَغُرَّنْكَ حَظُّ جَرِّهِ خَرَقُ
 ٢٨ أَحْسِنُ إِذَا كَانَ إِمْكَانٌ وَمَقْدِرَةٌ
 ٢٩ فالرَّوْضُ يَزْدَانُ بِالْأَنْوَارِ فَاغْمَةٌ
 ٣٠ صُنْ حُرٌّ وَجْهَكَ لَا تَهْتِكْ غِلَالَتَهُ
 ٣١ فَإِنْ لَقِيتَ عَدُوًّا فَأَلْقَهُ أَبَدًا

* * *

- ٣٢ دَعِ التَّكَاسُلَ فِي الْخَيْرَاتِ تَطْلُبُهَا
 ٣٣ لَا ظِلَّ لِلْمَرْءِ يَعْرِى مِنْ تُقَى وَنَهَى

٢٧ - الخَرْقُ بفتح الخاء والراء ، والخَرْقُ بضم الخاء وسكون الراء ، كلاهما بمعنى العُنْفِ والغِلْظَةِ ، وبأَيَّانٍ بمعنى الحُمُقِ والبلاهة . والمعنى : لَا تَغْتَرَّ بِطَيْشِ الْأَحْمَقِ إِنْ صَاحَبَهُ فَوْزٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ ، فَالرَّفْقُ بِنَاءٌ ، وَالْحُمُقُ هَذَا . وفي الحديث الشريف : « مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » .

٢٨ - أَي لَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، فَإِذَا تَمَكَّنَتْ فَأَحْسِنُ ، فَإِنَّهَا فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ رُبَّمَا لَا تَعُودُ .

٢٩ - يَزْدَانُ : يَتَزَيَّنُ . الْأَنْوَارُ جَمْعُ نَوْرٍ بفتح النون وهو الزَّهْرُ . فَاغْمَةٌ : مَتَفَتِحَةٌ . أَي كَمَا يَتَزَيَّنُ الرُّوضُ بِالْأَزْهَارِ الْمَتَفَتِحَةِ الْجَمِيلَةِ ، كَذَلِكَ يَتَزَيَّنُ الْحُرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .

٣٠ - حُرُّ الْوَجْهِ : مُحَاسِنُهُ وَكَرَامَتُهُ . وَالْغِلَالَةُ بِكسر الغين : ثَوْبٌ رقيق كالقميص يلبس على الجسد تحت الثياب الغليظة . والمراد هنا : صُنْ حَيَاءَكَ وَمَاءَ وَجْهِكَ ، وَلَا تُرْقِّهِ لِأَجْلِ أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ .

٣١ - غَضَّانٌ : مُشْرِقٌ طَلَقَ . يرشد الشاعرُ المخاطَبَ فِي شَأْنِ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، فيقول له : إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ فَأَلْقَهُ بِوَجْهِهِ بِاسْمٍ مَتَهَلَّلٍ ، مَتَرَفَعًا عَنْ مِقَابِلَتِهِ بَعْدَاوَتِهِ ، إِذْ لِقَاؤُكَ لِعَدُوِّكَ بِالْبِشْرِ يَزِيدُ فِي رَفْعَتِكَ عَلَيْهِ ، وَيُفَوِّتُ عَلَيْهِ التَّشْفِيَّ مِنْكَ بِإِغْضَابِهِ لَكَ ..

٣٣ - الظِّلُّ هنا : الْعِزُّ وَالْمَنْعَةُ . يَعْرِى مِنْ تُقَى وَنَهَى : يَفْقِدُ التَّقْوَى وَالْعَقْلَ . أَفْنَانٌ : غُصُونٌ . والمراد بها هنا : النَّعْمُ وَالرَّفَاهِيَّةُ . والمعنى : لَا عِزَّ وَلَا مَنْعَةَ لَامْرِيءٍ . =

- ٣٤ والناسُ أعوانٌ من والتهُ دولتهُ وهُم عليه إذا عادتهُ أعوانٌ
 ٣٥ (سَحْبَانُ) من غيرِ مالٍ (بِاقِلٍ) حَصِرُ و(بِاقِلٍ) في ثراءِ المالِ (سَحْبَانُ)
 ٣٦ لا تُودِعِ السَّرَّ وشَاءَ يُّوْحُ بِهِ فما رَعَى غَنَمًا في الدَّوِّ سِرْحَانُ
 ٣٧ لا تحسِبِ الناسَ طَبْعًا واحدًا فلَهُم غَرَائِزُ لست تُحصِيهنَّ ألوانُ
 ٣٨ ما كلُّ ماءٍ كَصَدَاءٍ لِوَارِدِهِ نَعَمْ، ولا كلُّ ثَبْتٍ فهو سَعْدَانُ

= يَنْقُصُهُ الْعَقْلُ وَالتَّقْوَى ، وَإِنْ غَمَرَتْهُ نِعَمُ الْحَيَاةِ وَرَفَاهِيَّتُهَا .
 ٣٤ - والتهُ دولتهُ أي أقبَلت عليه الدنيا وابتَسَمَتْ له الأيام . عادتهُ : أدبَرَتْ عنه الدنيا واستَقْبَلَتْه الحياةُ بوجهٍ كريه .

٣٥ - سَحْبَانُ : رجل من بني وائل ، كان من أفصح فصحاء العرب وبلغائها ، وبه يُضْرَبُ المثل في الفصاحة والبيان ، فيقال : أفصحُ من سَحْبَانٍ . وَحَصِرُ : عَيْيٌ .
 وِبِاقِلٌ : رجلٌ من بني إباد ، كان مشهوراً بالعِيَّ والفهاهة ، حتى يُضْرَبُ به المثل في العجز عن الإبانة عما في النفس ، فيقال : أَعْيَى من بِاقِلٍ ! ومن عِيَّه أنه اشترى ظَبِيًّا بأحد عشر درهماً ، وأمسك به ، فمرَّ بقوم فقالوا له : بكم اشتريتَ الظبيَّ ؟ فمدَّ كَفَّيه وأخرج لسانه ، مُشِيرًا إلى أنه اشتراه بأحد عشر درهماً ، فَشَرَدَ الظبيُّ منه وهَرَبَ ! فَضْرَبَ به المثلُ لِعِيَّه وغباوته ، كما في « مجمع الأمثال » للميداني في باب ما جاء على أفعل من باب ما أوله عين .

والمعنى : سَحْبَانُ البليغُ إذا عَرِيَ من المال صار في نظر الناس عَيْيًّا عِيَّ بِاقِلٍ ، وِبِاقِلُ الْعَيْيِّ إذا كان ثَرِيًّا غَنِيًّا صار في نظرهم فصيحاً بليغاً بلاغةً سَحْبَانُ ، فالمالُ عند الناس يَقْلِبُ الحقائقَ والموازن ! وَيُؤَثِّرُ في اعتبارِ الرجال وإهمالهم .

٣٦ - الدَّوُّ : المفازة والصحراء . والسَّرْحَانُ بكسر السين وسكون الراء : الذئب . أي أي لا تُفَضِّرُ بِسَرِّكَ إلى امرئٍ مَذِياعٍ يُفْشِي السَّرَّ وَيُذِيعُهُ ، إنك إن فعلتَ ذلك تكن مثل من يُسَلِّمُ الغنمَ للذئب ليأكلها ! إذ قد استَحَفَظَ من لا يحفظ !
 ٣٧ - يعني أن الناس تختلف طبائعهم وسجاياهم ، فلا تُحَسِّبُهُم كُلَّهُم على طبعٍ واحد ، فينبغي أن تُراعيَ طباعهم في معاشرتهم ومعاملتهم .

٣٨ - صَدَاءٌ : اسمُ عين ماء لم يكن عند العرب أعذبُ من مائها . ومن أمثالهم : ماءٌ ولا كَصَدَاءٍ . يُضْرَبُ مثلاً للرجلين لهما فضلٌ إلا أنَّ أحدهما أفضل . =

٣٩ لا تَخْدِشَنَّ بِمَظَلٍ وَجْهَ عَارِفَةٍ فَاَلْبِرُّ يَخْدِشُهُ مَظَلٌّ وَلَيَّانٌ

* * *

٤٠ لا تَسْتَشِيرْ غَيْرَ نَذْبٍ حَازِمٍ يَقِظٍ قَدْ اسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارٌ وَإِعْلَانٌ

٤١ فَلِلتَدَابِيرِ فُرْسَانٍ إِذَا رَكَضُوا فِيهَا أُبْرُوا، كَمَا لِلحَرْبِ فُرْسَانٌ

٤٢ وَلِلْأُمُورِ مَوَاقِيتُ مُقَدَّرَةٌ وَكُلُّ أَمْرٍ لَهُ حَدٌّ وَمِيزَانٌ

٤٣ فَلَا تَكُنْ عَجَلًا بِالْأَمْرِ تَطْلُبُهُ فَلَيْسَ يُحَمَّدُ قَبْلَ النُّضْجِ بُحْرَانٌ

* * *

= والسَّعْدَانُ : اسمُ عُشْبٍ بَرِّيٍّ ، يُعَدُّ مِنْ أَفْضَلِ مِرَاعِي الْإِبِلِ ، لَا تُحْسِنُ الْإِبِلُ عَلَى نَبْتِ حُسْنِهَا عَلَيْهِ ، إِذَا رَعَتْهُ غَزَزَ لَبْنُهَا وَزَادَ دَسْمُهُ وَطِيبُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ . يُضْرَبُ مَثَلًا لِلشَّيْءِ يُفْضَلُ عَلَى أَقْرَانِهِ وَأَشْكَالِهِ . أَيِ هَذَا مَرَعَى جَيِّدٌ وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْجَوْدَةِ مِثْلُ السَّعْدَانِ .
والمعنى : مَا كُلُّ النَّاسِ فِي الْجَوْدَةِ وَالْأَصَالَةِ وَحُسْنِ الطَّبَعِ سَوَاءٌ ، فَفِيهِمُ الْجَيِّدُ وَالْأَجُودُ وَالذُّونُ فَعَامِلُهُمْ مُلَاحِظًا أَصْنَافَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ .

٣٩ - الحَدَشُ : الْجَرَحُ . وَالْعَارِفَةُ : الْمَعْرُوفُ وَالْإِحْسَانُ . وَالْمَظَلُّ : التَّسْوِيفُ وَالتَّأْخِيرُ . وَاللَّيَّانُ بَفَتْحِ اللَّامِ وَكسْرِهَا : التَّأْخِيرُ وَالْمَمَاطِلَةُ . أَيِ لَا تُجْرَحُ وَجْهَ مَعْرُوفِكَ وَإِحْسَانِكَ بِالتَّأْخِيرِ وَالتَّسْوِيفِ ، فَخَيْرُ الْبَرِّ عَاجِلُهُ .

٤٠ - نَذْبٌ : مُنْجِدٌ . حَازِمٌ : ضَابِطٌ لِلْأُمُورِ . يَقِظٌ : نَبِيهٌ وَاعٍ . وَالْمَعْنَى : لَا تَعْتَمِدْ فِي اسْتِشَارَتِكَ إِلَّا عَلَى الرَّجُلِ الشَّهْمِ الْمُنْجِدِ ، وَالضَّابِطِ النَّبِيهِ النَّقِيِّ النَّفْسِ ، الَّذِي عُرِفَتْ سَرِيرَتُهُ كَعَلَانِيَّتِهِ .

٤١ - أُبْرُوا : غَلَبُوا وَفَازُوا عَلَى غَيْرِهِمْ بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَجَوْدَتِهِ . يَعْنِي يُسْتَشَارُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَهْلُهُ وَعَارِفُوهُ .

٤٢ - أَيِ الْأُمُورِ لَهَا أَوْقَاتٌ مُقَدَّرَةٌ ، وَحُدُودٌ مُعَيَّنَةٌ ، وَمَوَازِينٌ دَقِيقَةٌ ، فَرَنْ كُلَّ أَمْرٍ بِمِيزَانِهِ وَحَدَّهُ وَوَقْتَهُ .

٤٣ - النُّضْجُ : الْاِكْتِمَالُ . وَالْبُحْرَانُ بِضَمِّ الْبَاءِ وَسُكُونِ الْحَاءِ ، لَفْظٌ مُؤَلَّدٌ ، يُونَانِي الْأَصْلُ ، وَهُوَ عِنْدَ الْأَطْبَاءِ : التَّغْيِيرُ الَّذِي يَحْدُثُ لِلْعَلِيلِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي الْأَمْرَاضِ الْحَادَةِ إِلَى الصَّحَّةِ أَوْ إِلَى الْمَرَضِ ، فَإِنْ وَقَعَ بَعْدَ نُضْجِ مَادَّةِ الْمَرَضِ فَهُوَ عَلَامَةُ الصَّحَّةِ وَالشِّفَاءِ ، وَإِنْ وَقَعَ قَبْلَ نُضْجِهَا فَهُوَ عَلَامَةُ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ . فَعَلَى الْعَاقِلِ =

٤٤ كَفَى مِنَ الْعِيشِ مَا قَدْ سَدَّ مِنْ عَوَزٍ ففیه للحرِّ إن حَقَّتْ غُنْيَانُ

٤٥ وذو القناعة راضٍ من معيشته وصاحب الحرصِ إن أُثْرِى فغَضْبَانُ!

* * *

٤٦ حَسْبُ الْفَتَى عَقْلُهُ خِلًا يُعَاشِرُهُ إذا تحاماه إخوانٌ وخُلَانُ

٤٧ هما رَضِيعَا لِبَانٍ : حِكْمَةٌ وَتَقَى ، وساكننا وطنٍ : مالٌ وطُغْيَانُ

٤٨ إذا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنُ فَلَهُ وراءه في بسِيطِ الأرضِ أوطانُ

٤٩ يا ظالمًا فَرِحًا بِالْعِزِّ سَاعَدَهُ إن كنتَ في سِنَةِ فَالْدَهْرِ يَقْظَانُ

أن لا يَعَجَلَ في أمره كما قيل :

تَأَنَّ فِي الشَّيْءِ إِذَا رُمَتْهُ لَتَعْرِفَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ
لَا تَتَّبِعَنَّ كُلَّ دُخَانٍ تَرَى فَالنَّارُ قَدْ تُوقَدُ لِلْكَيِّ
وَقِسْ عَلَى الشَّيْءِ بِأَشْكَالِهِ يَذُكُّ الشَّيْءُ عَلَى الشَّيْءِ

٤٤ - العيشُ هنا : ما يُتَبَلَّغُ به من رِزْقٍ . والعَوَزُ : الحاجةُ والفقر . والحرُّ هنا المراد به : العاقلُ القانعُ العزيز . والغُنْيَانُ بضم الغين وسكون النون : الاستغناء .

٤٥ - أُثْرِى : زاد ماله وكَثُرَ . وقوله : وصاحب الحرصِ إن أُثْرِى فغَضْبَانُ . وذلك لطمعِهِ المتزايد ، فيرى نفسه دائماً في حاجةٍ إلى المزيد من الثراء ، ويغضبُ

إذا لم ينل ذلك .

٤٦ - خِلًا : صديقاً ناصحاً . والخُلَانُ : الأصدقاء . أي يكفي الفتى الراشد أن يتَّخِذَ من عقلِهِ مُرْشِداً يَلْجَأُ إليه إذا تَبَاعَدَ عنه الإخوانُ والأصدقاء .

٤٧ - رَضِيعَا لِبَانٍ أي يَرْضَعَانِ من ثَدْيٍ واحدٍ ، فهما أَخَوَانُ . وساكننا وطنٍ أي متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر غالباً . والمعنى : أن الحكمة والتقى أَخَوَانِ لا ينفكان ، والمالُ والطغيان متلازمان لا يفترقان .

٤٨ - نَبَا بالمرءِ الموطنُ : ضاق عليه ولم يوافقهِ ولم يُسَرَّ به .

٤٩ - العِزُّ هنا : السُّطُوةُ والسُّلْطَانُ . السُّنَّةُ : الغفلةُ الخفيفة . والمعنى : أيها الظالمُ السادرُ في غِيَّهِ ، لا يَغُرُّكَ ما أنت فيه من سطوةٍ وسلطان ، إن كنتَ في غفلةٍ عن هذا فإنَّ عَيْنَ اللَّهِ لَا تَنَامُ عنكَ ، وما أَسْرَعَ ما يَنْتَقِمُ منك .

٥٠ ما استمرأ الظلم لو أنصفت آكله وهل يلد مَذاق المرء خطبان

* * *

٥١ يا أيها العالم المَرْضِي سِيرَتُهُ أبشِرْ فأنت بغير الماء رِيَانُ

٥٢ ويا أخا الجهل لو أصبحت في لُجَجِ فأنت ما بينها لا شك ظَمَانُ

* * *

٥٣ لا تَحَسَبَنَّ سُرُوراً دائماً أبداً مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أزمانُ

٥٤ إذا جَفَاكَ خَلِيلٌ كُنْتَ تَأْلَفُهُ فَاطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ

٥٥ وإنْ نَبَتْ بِكَ أوطانُ نَشَأَتْ بها فَارْحَلْ فَكُلُّ بِلَادِ اللَّهِ أوطانُ

* * *

٥٦ يا رافِلاً في الشَّبَابِ الرَّحْبِ مُتَبَشِّياً مِنْ كَاسِهِ، هل أصاب الرُّشْدَ نَشْوَانُ؟

٥٠ - استمرأ الشيء : استطابه . والخطبان : الحنظل حين يأخذ في الاصفرار وتشتد مرارته . ويقال في المثل : أمرٌ من الخطبان ، أي أمرٌ من الحنظل . والمعنى : أيها الظالم لو أنصفت لأقررت بأن الظلم مذاقه مرٌّ كالحنظل ، لا يستسيغه المرء ، وهل يستطيع مرارة الحنظل إنسان ؟

٥١ - رِيَانُ : مُرْتَوٍ . وأصل الارتواء الشَّبْعُ من الماء . والمراد هنا : الطمأنينة وغيى النفس والقناعة والرضا . والمعنى : أيها العالم الذي حفظ أمانة العلم ، وسما إلى شرفه الرفيع بعمله به ، فلهجت ألسنة الناس بالثناء عليه ، وأصبح فيهم عطر الذكر والسيرة ، أبشِرْ فأنت بما أفاء الله عليك من تلك الخصال الرفيعة : قرير العين مطمئن النفس والفؤاد .

٥٢ - اللُجَجُ جمع لُجَّة ، وهي مُعْظَمُ الماء . وظمآن : عطشان . والمراد به هنا : محروم . والمعنى : أيها الجاهل الراضي بجهله ، لو غمرتك الدنيا بخيراتها فأنت محرومٌ ظمىء ، لأنك فقدت نعمة العلم ، وبها تُسقى العقول والقلوب .

٥٦ - رافِلٌ : مختال مُتَبَخَّرٌ . مُتَبَشِّياً من كَاسِهِ ، معناه هنا : مُعْجَبٌ مُدِلٌ بِخَيْرِيَّتِهِ وَقُوَّتِهِ . نَشْوَانٌ : سَكْرَانٌ . يقال في اللغة : انتشى فلان أي بدأ سُكْرُهُ . فشبه الشَّبابَ بالخمَرِ ، والاغترارَ به بالنشوة والسكر . والمعنى : أيها الشاب المختال المُعْجَبُ بشبابه وقوته الفتية ، لا تغترَّ بعنفوانِ شبابك وتأججِ قوتك ، فالشباب =

- ٥٧ لا تَغْتَرِرْ بِشَبَابٍ رَائِقٍ نَضِيرٍ فكم تَقَدَّمَ قَبْلَ الشَّيْبِ شُبَّانُ
- ٥٨ ويا أخا الشَّيْبِ لو ناصحتَ نفسَكَ لم يكن لِمِثْلِكَ في اللَّذَاتِ إِمْعَانُ
- ٥٩ هَبِ الشَّيْبَةَ تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا ما عُذْرُ أَشْيَبَ يَسْتَهْوِيهِ شَيْطَانُ؟!

* * *

- ٦٠ كُلُّ الذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهَا إِنَّ شَيْعَ الْمَرْءِ إِخْلَاصُ وَإِيمَانُ
- ٦١ وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

* * *

- ٦٢ خُذْهَا سَوَائِرَ أَمْثَالٍ مُهَذَّبَةً فِيهَا لِمَنْ يَتَغَيَّي التَّبَيَّانُ تَبْيَانُ

= عَرَضُ زَائِلٍ ، والانتشاء به حاجبٌ للعقل عن الهداية والرشاد ، وهل أدرك الرُّشْدَ سكران ؟ . قال الإمام أحمد رضي الله عنه : ما شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ !

٥٧ - رَائِقٌ : مُعْجِبٌ جَمِيلٌ . نَضِيرٌ : حَسَنٌ نَاعِمٌ . والمعنى : لا تَغْتَرَّ أَيُّهَا الشَّابُّ الْمَتَدَفِّقُ حَيَوِيَّةً وَنَضَارَةً وَنَشَاطًا بِسَنِّ الشَّبَابِ ، تَحَسَّبُ أَنْكَ تَعِيشُ طَوِيلًا ، فكم من شَابٍّ اخْتَطَفَتْهُ الْمَيِّتَةُ قَبْلَ الشُّيُوخِ الْكِبَارِ الْمُسِنَّينَ .

٥٩ - الشَّيْبَةُ : حَدَاثَةُ السِّنِّ ، تُبْدِي عُذْرَ صَاحِبِهَا : تُظْهِرُ عُذْرَهُ ، لِأَنَّ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ ، وَيُقَالُ : مَطْنَةُ الْجَهْلِ . وَأَشْيَبٌ : أَبْيَضُ شَعْرِ الرَّأْسِ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ وَكِبَرِ السِّنِّ .

٦٠ - شَيْعَ الْمَرْءِ : صَاحِبَهُ .

٦١ - الْقَنَاةُ : الرَّمْحُ . وَالْمَرَادُ بِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ : ذَهَابُ الدِّينِ وَفَقْدُهُ . وَمَعْنَى الْبَيْتِ : كُلُّ مُصَابٍ فِي الْمَالِ أَوْ الْبَدَنِ أَوْ الْوَلَدِ . . . يُخَفِّفُ الدِّينُ مِنْ وَقْعِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَيُعَوِّضُهُ عَنْهُ بِالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ . وَأَمَّا الْمُصَابُ فِي الدِّينِ فَلَا يُعَوِّضُهُ شَيْءٌ ! فَهُوَ أَكْبَرُ مُصَابٍ !

٦٣ ماضِرٌ حَسَّانَهَا - وَالطَّنْبُ صَائِفُهَا - أَنْ لَمْ يَصْفُهَا قَرِيعُ الشَّعْرِ حَسَّانُ

* * *

٦٣ - حَسَّانَهَا : قَائِلُهَا وَنَاطِمُهَا . قَرِيعُ الشَّعْرِ ، يَعْنِي بِهِ سَيِّدُ الشَّعْرِ : الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الَّتِي أَنْسَابَتْ مِنْ قَرِيحَةٍ شَاعِرٍ مَطْبُوعٍ ، وَفَاضَتْ بِقِلَائِدِ الْمَعَانِي وَرَوَائِعِ الْأَلْفَاظِ ، وَتَضَمَّنَتْ بَلِيغَ الْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظِ ، لَا يُقَلُّ مِنْ رَوْعَتِهَا وَجَمَالِهَا أَنَّ قَائِلَهَا شَاعِرٌ مُحَدِّثٌ ، وَلَيْسَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ سَيِّدُ الشَّعْرِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

المصادر والمراجع

- ١ - أبو الفتح البستي حياته وشعره للدكتور محمد مرسى الخولي . طبعة دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع في بيروت سنة ١٩٨٠ .
- ٢ - الأعلام لخير الدين الزركلي . الطبعة الثانية المنتهية طباعة سنة ١٣٧٨ .
- ٣ - الأنساب للسمعاني . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٨٢ وما بعدها .
- ٤ - تاريخ العُتبي المعروف باليميني للعُتبي معاصر البستي وصاحبه . بولاق ١٢٩٠ .
- ٥ - جواهر الأدب لأحمد الهاشمي . مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٨٥ .
- ٦ - الحُلل السندسية للأمير شكيب أرسلان . مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٣٩ .
- ٧ - ديوان البستي مطبعة جمعية الفنون في بيروت ١٢٩٤ .
- ٨ - شرح القصيدة النونية لحسين عوني العربكري التركي . إصطنبول ١٣١٢ .
- ٩ - طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ، بتحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطَّنَاحي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٣ وما بعدها .
- ١٠ - طبقات الشافعية للجمال الأسنوي ، بتحقيق عبدالله الجبوري . مطبعة الإرشاد في بغداد ١٣٩٠ .

- ١١- الفتح الوهبي على تاريخ العُتبي لأحمد المنيبي الدمشقي . المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٦ .
- ١٢- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة . إصطنبول ١٣٦٠ .
- ١٣- المصون لأبي بكر الصولي . طبع حكومة الكويت فيها ١٩٦٠ .
- ١٤- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة . مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٦ .
- ١٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي . حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٧ .
- ١٦- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل البغدادي . إصطنبول ١٩٥٥ .
- ١٧- وفيات الأعيان لابن خَلِّكان . الميمنية بالقاهرة ١٣١٠ .
- ١٨- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي معاصر البستي وصاحبه . الطبعة الثانية للمكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٧٥ .